« العلقة »

قصة بقلم حميد حميد

« الى صديقي الذي مات وهو يصرخ : الحياة هي السجن »

في الساحة الضيقة السمراء ، كان السجناء يعبرون في خطوات ايقاعية ، بلا انتظام ، سأل احد السجناء رفيقه :

ـ هل علمت بالقادم الجديد ؟

واستطرد وهو ينظر نحو الارض : يقال عنه انه حالة فريدة ...

قال الاخر : ولكن لماذا تطلق عليه هذا الاسم ؟

قال السجين الاول : سمعت ان جريمته من نوع خاص ، وهي غامضة تثير الكثير من التساؤلات .

رد الاخر : اين وضعوه ؟ هل هو بيننا ؟

اجاب الاول : في زنزانة منفردة ، وقد اشيع عنه انه مصاب بالصرع، يهذي ويصرخ في الليل بوحشية وعنف، وقد مضى عليه يوم واحد فقط.

ـ الم تعرف جريمته ؟

قال الاول : ـ جاءني اخي اليوم واخبرني ان المدينة مروعة بالحادث، الذي ارتكبه ، قتل انسانا من أعز اصدقائه . لم يرو اية تفاصيل ، كنا مراقبين والزيارة محدودة .

ـ آه ... هذا غير ذي أهمية ، دعنا منه ، كم بقي لك في هذا السجن ؟؟

ـ عامان وشهر ويومان ، اذا اعتبرنا هذا اليوم موشكا على الزوال.

ـ هل تفعل مثلي ، انا اسجل أيامي على الجدران ، بجانب ايام الاخرين .

ـ فكرة هائلة ، كيف تمحو ايام الذين رحلوا ؟

ـ الاظافر ، الطريقة المثالية للمحو ...

رائع .. والقادمون يحكون حياتكم ، وهكذا السجون ابدا لا تعاني من أزمة الفراغ .

* * *

قرع الجرس معلنا انتهاء الاستراحة الممنوحة ، والعودة الى الغرف الصغيرة الضيقة ذات الدكك الاسمنتية .

كانت الشمس تنحدر نحو الغرب ، وكانت الساحة قد خلت، لم تكن هناك غير اثار وهمية لاقدام بشرية ، كانت قبل لحظات ، تدق الاسمنت ، وذيول الاشعة تنهزم بعد اداء شهادتها على اولئك المحكومين في السجن المركزي للمدينة اللامبالية . وفي غرفة ما ، غارقة في الظلمة، كان « العلقة » مرميا على الدكة الاسمنتية الباردة ، كان يشبه حجرا مشلوحا هنا ، وكان يفكر « ما حدث يبدو مسرحيا للغاية » ، انني هنا مع النماذج القافزة فوق الحدود ، ولعل هذا غير مدهش تماما ، ولكن ان اوصم بالقتل ، ان اكون قاتلا حقيقيا ، فهذا لا يطاق ، لا يمكن تصديقه. وبدأ الشريط يمر ، كان صامتا مدهوشا عندما سأله القاضي : لماذا قتلت ؟

ولم يجب ، وكرر القاضي السؤال ، هز رأسه بالنفي ، وود ان يصرخ بوحشية ، ولكنه كان اخرس من الداخل ، كانت الدوامة تسرع.

وقال القاضي : هذا الرجل فاقد الوعي .. خذوه ..

واقتاده شرطيان نحو زنزانته ، واحكما عليه الرتاج ، وعندما انتبه لنفسه وحيدا مع الجدران الصقيعية السميكة ، صرخ : لست القاتل، لا اريد ان اكون هنا ...

وسمع قهقهة الشرطيين ، وهما يعودان ، قال احدهما : جاءته النوبة . رد الثاني : امثاله عديدون ، وسجننا مليء بالنوبات .

قال الاول : الا تشعر بالاعتزاز وانت ترمي بسجين ما في غرفته..؟؟

رد الثاني : طبعا من الروعة بمكان ان نكون خدما للقانون ...

* * *

كان ذلك عهده الاول بالسجون ، وكان قد قرأ كثيرا عن حياة المحكومين ،وما يعانونه وسط هذا العالم الضيق المخنوق بالوحشة والانقطاع الكامل عن الحياة ، وكانت تثيره رغبة التخطي بشكل ما ... امتدت يده الغريبة تلامس الجدران تضغط عليها ، وامسك بالباب الحديدي ، كان مثلجا باليدا ، وهزه فلم يتزحزح، سقط بصره نحو جسده وانحدر الى قدميه ، ثم مد يده الفارغة باستقامتها في الفراغ الابله، وداهمه حس السقوط النهائي ، الشعور بالعدم وسط هذه الابعاد الهندسية « علي ان اعتاد النسيان ، ليس ثمة امل ما » وعبرته بارقة صغيرة ، وهو يقيس ابعاد الزنزانة « كم هم بارعون اولئك المهندسون، يصنعون تصميمات مختلفة لجميع الحالات » .

واستلقى على السرير الاسمنتي المستطيل ، وشعر وكأنه يتمدد داخل تابوت حجري ، وارتجف ، « انني اكره التوابيت » لم يدر كم من الوقت انقضى ، وهو يذرع بقعته الصغيرة ، وشعر بالخدر واليبوسة، يمتدان الى رجليه ، تهاوى منطرحا على بطنه ونام .

حوالي منتصف الليل ، سمع المحكومون اصواتا غريبة قادمة من زنزانة الحالة الفريدة ، كانت وحشية تنقلب في نهايتها الى ما يشبه الانين ، وكانت الطرقات المفجوعة ، تتخامد ، ليسمع صوت شيء ما يسقط ويرتطم بالارض ، كان المصروع يعبر جحيمه .

سأل سجين يرتعد من الاصوات الغريبة رفيقه : هل تعتقد ان هذا المجنون يجب ان يبقى هنا ..؟؟

رد الزميل : لم يستجوب بعد .

ـ لماذا لا يرمونه في مستشفى الامراض العقلية ..؟؟

ـ من يدري ، قد لا يكون مجنونا .

ـ ما هذه الاصوات ..؟؟

ـ يشاع انه يرى كوابيس مرعبة .

ـ المصروعون هم الذين يحلمون بالرؤى المرعبة .

ـ يقال انه يقرأ كتبا مجرمة .. مجرم مثقف .. ماذا يعني هذا..؟؟

ـ هل تعرف شيئا عن الكتب ..؟؟

ـ قرأت ارسين لوبين ولوليتا .

ـ انسان خطر ، لهذا انت هنا .

ـ اسمع ، كانت طفلة بريئة شهية ، وكنت امر ذات يوم بجانب نافذتها ، وهي ترميني بنظرات تقطر جوعا، كانت تبتسم وبسمتها لا تقاوم، كنت اشتعل وانا ارمقها ، وذات يوم قلت لها « لوليتا ».. وقهقهت .. وعندما طرقت الباب ، واخذت صغيرتي بين ذراعي ، احسست انني امتلك العالم .. طريه .. ناعمه .. دافئه .. نلتها بكل رضى .. ومع هذا فالقاضي لا يريد ان يفهم ، واستطرد: .. هل نمت يوما مع طفله..؟؟

ـ اخرس .. عليك ان تندم على هذا ..

ـ عملي طبيعي ، انني نادم ، بل مسحوق من الندم ، لانني لا اراها، وامتلكها في كل يوم .. هل تعلم انها الان حزينة تنتظرني ..؟؟

ـ هل يعني هذا أن السجن لم يطهرك ..؟؟

ـ سخيف ، عندما اخرج ، سآخذهـا بقمة رغائبي .. السجن .. الاخلاق .. العار.. الدين .. هذا الاهتراء لا معنى له اريد ان اكون انا بلا ايذاء .

بصق السجين على الارض وردد لوحده ، « الالهة تعبر مرحلة الاحتضار .. انسان هذه الارض جاهد لا يعرف مواطىء قدميه » .

كانت الاصوات قد عادت ، وكان الانين يتزايد ، مع انتهاء الاصوات يجرح الليل ، وعلى شجرة توت ، كانت بومة تنعق ، لم يكن هناك قمر وكانت النجوم تتراقص في البعيد بلا ضوء .

قال سجين : لماذا لا يوقظونه ..؟؟

رد اخر : دعنا نصرخ بهم .

ومزق الليل صوت وحشي . دلف شرطي مسلح هاتفا : من صرخ..؟

رد سجين : المجنون يسلب نومنا ، انه يئن ويضرب الابواب .

أصاخ الشرطي بسمعه ، فلم يسمع شيئا ، اقترب من الزنزانة المريبة وانصت ، فلم يسمع صوتا ما او انينا ، كان الشرطي يرتجف، وثبت يديه باحكام على سلاحه وادار الحربة باتجاه الزنزانة قائلا لنفسه « لو خرج الان لطعنته دفاعا عن النفس » وبقي فترة بقرب الباب يتنصت غارقا في رعبه البليد المجهول ، ولما لم يسمع حركة ، عاد وقال للسجين الواقف بالقرب منه :

لقد كذبت ، لم اسمع شيئا ، لو صرخت ثانية ، فسأصنع من جلدك دريئة .

هز سلاحه باتجاهه ، وعندما اختفى ، التفت السجين وبصق على الشرطي.

* * *

كل اولئك المحكومين المهملين في زنزاناتهم المنفردة او الجماعية ، كانوا حالات فريدة ، يدينون القانون بشكل او باخر ، وكانوا ايضا حالات عمومية تثبت لا جدوائية الكلمات المثالية الموضوعة لتنظيم عالم عصري متحضر ، وكان الاختلاف بينهم وبين « العلقة » من الوجهة القضائية فحسب لا من الناحية النفسية ، لان القضاء لم يجد في نص من نصوصه عقوبة للانسان الذي يقتل في نومه .

كان المصروع من هذا النوع اللعين الغريب الذي لم يدخله القانون في حساب من سيروضهم بالجدران والاسلاك والنوم الرديء وتكرار الايام المملة الخانقة عبر مساحة صغيرة من هذا العالم الكبير .

ولقد اجلت المحاكمة لعرض الحادث على الجهات العليا لتدلي باجتهادها في الموضوع الشائك المطروح ، كي لا يصاب القانون بهزيمة مبدئية ربما جرت الى هزائم اخرى .

كان القاضي قد كتب الى المصادر القانونية العليا ما يلي :

« في هذه المدينة ، تعترضنا حالة شاذة ، غريبة من نوعها ، ولم يسبق للقضاء خلال كفاحه الباسل ، من اجل الحق والعدالة ، ان مر بها ، والحالة هي « شاب يقتل صديقه في اواخر الليل بلا عداوة سابقة، كما هو واضح من الشهود والملف المدرج لدينا ، وأدهى ما في الامر بل، العقدة ، ان القاتل كان نائما وعندما فوجيء بالجريمة ، اصيب بنوع من الصرع . من المعتقد ان الحالة نفسية بحتة تدخل في نطاق ما يمكن تسميته احيانا باللاشعور ، نأمل دراسة القضية ومدنا بالنصوص الممكنة لحل المعضلة ، فالمدينة والصحف بدأت ترسم علامات استفهام حولها ، ولعلنا سنمنى بفضيحة مزرية اذا لم نتصرف بحكمة .

ملاحظة : القاتل معزول عن جميع التأثرات الخارجية ، يعبر مرحلة هذيان مخيفة ، المحاكمة مؤجلة حتى يردنا الجواب » ..

عند انبثاق الصبح في اليوم الرابع لقدومه لهذا المكان ، المشبوه، استيقظ من سريره الارضي واحس انه مصدوع ، عظامه محطمة ، وكأنه قد امضى الليل في مناورة عسكرية ، ولم تكن لديه القدرة الكافية على الحركة ، كانت يداه مجرحتين ، وفكر بوعي « لعلني كنت اجتاز الجحيم» لم يكن وجوده هنا اراديا ، وكان يتمزق لالغاء ارادته على هذا النحو العفوي ، ولم يكن يتذكر غير بقع مظلمة من حياته ، كانت ترتسم مهزوزة على هذه الجدر الصماء اللامدركة كان مضطهدا بشكل لا انساني ،وكانوا يسمونه « العلقة » وحدث نفسه ، « لا شيء على الاطلاق يعيد لي حياتي، كانت هناك مرمية للديدان ، تزحف فوقها الاف العناكب ، انني ساقط في الكمين على هذه الارض الاخلاقية التي لاتعترف بالحالات المخلخلة ، اهانة حقيرة ، علي احتمالها ، ولن استطيع الرفض ، لانني داخل الحصار سألني القاضي : لماذا قتلته ..؟؟ ولم يسألني : لماذا قتلوك ، لماذا لوثوا حياتك ..؟؟ اي غباء هذا الذي ابحر فيه ، لاول مرة احس انني خارج الزمن ، خلال اعوامي السابقة كان يقرضني كجرذ الحقول ، واليوم ابدو منسلا من بين انيابه ، ربما كنت مجنونا في رأي القاضي والصحف والمساجين وجميع سكان المدينة ولكن انا ، الا اعرف نفسي اكثر من جميع اولئك الجلادين ؟ الا أملك الان تفكيري في ان ارمي بهم الى الجحيم ؟ اتراهم يستطيعون مصادرة جمجمتي ..؟ »

من ثقب صغير ، امتد صحن يحوي حساء ، يتصاعد منه البخار، تناوله وهو يفكر « ان لاارى احدا ، هذا رائع ، لعلهم يخافونني » وغصت الساحة بالمساجين ، كان قرع خطواتهم مسموعا ، وضجيجهم الحياتي يشق الفراغ ، وبدأ يميز بعض الاصوات القريبة .

قال احدهم : الى متى تستمر اصوات هذا المخبول ؟؟

رد اخر : حتى يحاكم .

ـ لماذا لايشنقونه وينتهي الامر .؟

ـ حالة فريدة .

ـ الى الجحيم آي معنى لهذا ، لا يوجد ما يسمى حالة فريدة في قاموس القانون .

ـ ماذا تعني .؟

ـ الانسان يولد .. ويعيش ... ثم يموت .

ـ العالم يصطرع على نوعية الحالة الوسطى .

ـ لماذا لايحيا الناس حالة واحدة .؟

ـ الحياة مضجرة ، على نمط واحد . يحاول الانسان تجديدها بالبحث عن الخطر .

كانت الشمس قد بدأت تتدفق ساكبة اشعتها على الارض الرمادية، باعثة بعض الدفء في جلود السجناء المحرومين من الشمس ، وكانوا يتلقونها بشغف وقبول لا مثيل له ، قال سجين : احب الشمس .

رد اخر : احبها بعد يوم ماطر .

ـ هل انت متزوج ؟

ـ لا ولكني احب الاطفال .

ـ تزوج لتنجب اطفالا .

ـ الانسان لايتزوج من اجل الاطفال .

ـ لماذا انت هنا .؟

ـ ذات يوم مشمس شتمت اله المدينة في الشارع .

ـ انت لا تؤمن بالله .؟

ـ الاله معقد جدا ، لايمكن الايمان به بسهولة ، كما لايمكن رفضه بنفس السهولة ... اتمنى ان اقبض عليه ، ان اراه ، هل تفهم ..؟؟

ـ كم يضايقني الخروج ، ربما عدت للشتيمة ، وهناك ابدا من يتربص بي ..

ـ هل قرأت كتبا وجودية .؟

ـ اي سخف ، لا اعرف كثيرا عن الكتب ، ومع هذا قالوا عني ، وجودي ملحد .

ـ لعلها موضة العصر ؟

ـ بل انهيار في الانسان .

ـ ٢ ـ

قرع الجرس معلنا نهاية المسيرة ، وسط الباحة المستطيلة المكشوفة على بقعة سماوية زرقاء ، ونظر محكوم نحو البقعة الزرقاء ، ولوح بيديه مودعا ودخل الجميع زنزاناتهم المقفرة .

قال شرطي لرفيقه : هذا القطيع من السجناء ، تسكرني رعايته ، وادخاله الى الحظائر .

رد الاخر : يذكرني ذلك بزوجتي المطيعة ، عندما اصرخ في وجهها ، تتكوم ككرة من القماش المهلهل ، فلا تنبس بكلمة .

قال الاول : امس كنت مستيقظا في الليل ، هذا المصروع ، لو بقي مدة طويلة هنا ، فلا بد من نشوب ثورة بين المساجين .

ـ اصحيح انه يصرخ ويئن في الليل ..؟؟

ـ لم اسمعه امس رغم احتجاج المساجين .

ـ للسجن قدسيته ، انسان من هذا النوع يجب ان يكون بعيدا عن هذا المكان ، والا ما معنى وجود مستشفيات عقلية ..

ـ يقال ان حالات خاصة قد بدأت تجتاح المدينة ، وان ازمة المستشفيات تستفحل ، حالات واضحة من الجنون والشذوذ والامراض وقد يلجأون لاستعمال السجون .

ـ آه ، هذا فخم ، سنزيد الرواتب بازدياد الساعات الاضافية .

ـ هاي ، مرحبا بالمجانين ، فليصب العالم بالهستيريا ، ولنكن نحن الرعاة .

تعانقا بحرارة وسط البسمات والرقص والاحساس بالزهو المتفوق، وغرق السجن بالاحساس الجديد .

كان اليوم قد بدأ ينقرض بمله وجفافه الحار المعرش على الاسطحة والحيطان ، الزنزانات تنزف بالرطوبة ، وحارس الباب يتثاءب ضجرا من ايامه المفرغة ، يقرع الارض الميتة بحذائه ذى المسامير المصفوفة النافرة متنكبا بندقيته ، يسير بخطوات واهية ، بعد ان اتعبه المسير المنتظم والحربة السمراء الصدئة ، تشق فراغها في حركة غبية لا مجدية .

وفي المدينة كان العالم يدور ، الاخرون يمضغون تفاهاتهم اليومية، يعبرون حياتهم في انسجام وتناسق مذهلين ، وكان لوحده وراء العالم، يذرع المساحة الضيقة الموهوبة له في صمت ونفوذ ، وفكر وهو يتوقف لحظة « الانسان الاستثنائي عليه ادراك وضعه اكثر من أي يوم مضى ، لم يعد الخارج مثيرا ، ولعلها راحة هائلة مواجهة مسرحية ان يقضي انسان مثلي حياته هنا .. ».

في الاسواق :

قضايا الشعر المعاصر

بقلم

نازك الملائكة

اوفى دراسة
وأعمقها في مشكلات الشعر
العربي الحديث

منشورات دار « الآداب » الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

وتابع المسير ببطء ، ونظر الى رجليه ، وبدأ يتسلى بعد الخطوات، واعجبته الفكرة ، ملهاة يومية ، تزيد في انسحاق الزمن ، وحدث نفسه. « حجزوني هذه الايام الطويلة ، منعوني من رؤية العالم دون ان يدركوا انني لست راغبا على الاطلاق فيه ، وهم لابد يصمونني بالصرع الم يكن الخارج اشد بربرية وهمجية ..؟؟ القضية من الوضوح بحيث لاتحتاج الى دليل ، انا لايمكن ان اقتل انسانا ، كانوا هم القتلة ، وحتى الان تسير اللعبة ، تمتد اذرعها الدبقة ، ولعلني قد سقطت في الشرك ،لكني لن اعترف بشيء لم يحصل ، سأحاول الرفض حتى ابلغ طاقة الاحتمال، وبعدها لن اكون انا ، شيء اخر لا انساني تماما » .

ونظر الى بقعة على الجدار ، كانت هناك كلمات شاحبة تقرأ بصعوبة كتبها سجين قبله باظافره ، وقرأ « رجال كثيرون غيري سيعبرون من هنا ولن تندحر الجريمة عن الارض ... لو استطيع ان احرق جميع مكاتب الدولة ودوائرها و ... »

لم يستطع ان يتم مابعدها ، واعجبته الفكرة ، وفكر .. « هذه زنزانة خاصة ، ولعل السجين كان أحمق ... يقرأ كتبا »

وتذكر جملة قرأها في كتاب ، لاحد المحكومين بالاعدام « الموت قفزة في الهواء نحو اللاشيء » .

كانت اظافره ستخدش الجدران الصماء الصديقة ، الى جانب خدوش جميع الاخرين الذين عبروا ، واراد ان يبدأ ، ولكنه تراجع مفكرا « هناك زمن طويل ، سأكتب خلاله بما فيه الكفاية » .

كان السقف خاليا من اية علامة بشرية ، وتمنى لو يستطيع خدش السقف ، ترك اثر ما في مكان لايطال ، وفكر « لن اقلم اظافري ، ولعلها مداعبة جسدية للالم ، ان يكتب الانسان بقطعة من جسده ... في العصور القديمة ، كانوا يعبرون عن حبهم الشديد بالكتابة الى عشيقاتهم بالدم، وانا اليوم ، ابدو عاشقا من طراز غير مألوف » .

خلال هذا كله ، كان يدرك شيئا واحدا ، انه محكوم مسبقا ، وكان يعلم لعبة العزل ، تهيئة الجو المناسب لتحطيم اعصابه ، ورفض وضعه الاستثنائي ، وعبرت بارقة : « يستطيع احد اخوتي تأدية شهادة عن سيري في حالة النوم ، وهناك مذكراتي الخاصة ، ولكن قد يحرضهم والدي ضدي ، اشهدوا ضد « العلقة » ان هذا لن يحدث ، فانا لم اخرق القانون لانني لم اكن واعيا » .

واحس بالدوار ، كانت الغرفة تتأرجح ككرة الروليت ، وكانت الدكة تهتز ، والسقف يلف ، وعنف الاهتزاز وازدادت الطرقات الداخلية وشعر بانه يغيب ، وبدأت الانفجارات اللاواعية ، وسقط عابرا بوابة الجحيم .

كانت الشمس في عصرها ، موشكة على التلاشي ، عندما اختلط الانين والصراخ، بضجيج المساجين ، وتجمهروا امام الزنزانة ، قال سجين « الحالة الفريدة يغني »

قال اخر : دعونا نرقص على انغامه .

ـ لماذا لانقتحم الزنزانة ؟

ـ فلنحرض المساجين ، ايها المحكومون ، حطموا الزنزانة .

وعربدت الاصوات الوحشية في الباحة ، رنا صاحب البقعة السماوية نحو لطخته وناجاها : لو كنت الان فيك ، املك ثورا ومحراثا، لازرعك يا بقعتي البعيدة ، اجذبيني اليك بقوة خارقة ، في هذه اللحظة الفوضوية .

انطلق الشرطة بحرابهم ، وصرخوا بالمساجين : عودوا الى كهوفكم ايها الكلاب .

قال شرطي : دعوني اشكهم كالعصافير بحجة القضاء على الفوضى

هتف اخر : انني صياد ماهر ، سانفذ رغبة الصيد بهذه الجيف.

وانطلقت بعض الرصاصات الطائشة ، ودب الذعر ، وتفرقت اجساد المحكومين وهي تصرخ عائدة الى اوكارها .

كانت ثلاث جثث مرمية تتخبط في دمها اللاصق بالارض ، تنساب منها خيوط ارجوانية ، تبدل لون القشرة السمراء للارض المعتمة .

ـ ٣ ـ

كان مرميا كالجثة لايعي شيئا ، لم يكن على فمه زبد ، وكان جسده المطروح على الاسمنت ، يشبه الاجساد المقلوبة في الساحة ، كان خاليا من الحركة ، وفي الاغوار الجحيمية : كان مقص يشرط اوردة الرقبة والدم كالانابيب المتدفقة ، والانسان المقطع يشخر كخروف مذبوح ،والدماء تتفجر ملوثة الفراش الابيض تسيل على الارض خيوطا حمراء ملتوية تشبه رؤوس حيات تتضخم ، وتصفعه يد ، وينشب صراع ، يحاول فيه خنق صاحب اليد وطعنه بالمقص ، وتتغلب عليه تلك اليد الغريبة ،وتصفعه ثانية وثالثة ورابعة ..

كان الجسد المطروح على الدكة الاسمنتية ، قد بدأ يتململ ويعود وفتح عينيه ، كان شرطيان يقفان بالباب بحربتين مشرعتين للاعلى ، وكان نور جديد يعبر الزنزانة ، كان متعبا محطم القوى غارقا تحت ثقل الكابوس الرهيب ، وسأل احدهما : هل امسكت بي ..؟؟

هز الشرطي رأسه بالنفي ، ثم عاود تقطيبه وعبوسه .

في صباح اليوم المحدد للمحاكمة ، نشرت الصحف باحرف حمراء عناوين مثيرة « الموت للسفاح المقص » « قاتل صديقه يلجأ الى خدعة الصرع لينجو بجلده » « اجتثوا هذه الحالات الاستثنائية لانها طعنة للعدالة » ..

وقرأ القاضي العناوين ، وبدأت سيول من البرقيات تتدفق مطالبة بسحق الوحش البشري ، دخل الحاجب يحمل مظروفا كتب عليه « سري للغاية » فضه رجل العدالة على مهل ، وتملاه ، هز رأسه بفشل واضح، وتمتم « حكموا عليه خارج هذه القاعة » .

وانعقدت المحكمة صباحا ، وادخل القاعة موثقا بين شرطيين مسلحين، كان غريبا يسير كالموتى ، وكانت الشمس تندلق من الشرق الاصم ،تشهد بكل غبائها المطلق ، وفي صدر القاعة ، كان القاضي وراء منبر عال وامامه كان المتفرجون والمصورون ، والصحفيون ، يثقبون المتهم بنظرات حادة ، وفكر داخل قفصه « هاقد بدأ الاعتراف بالعلقة ، جميع هؤلاء من اجلي انا » وشعر بان هذا مؤذ ولذيذ في نفس الوقت ، الا يعترف بانسان الا بعد الضجة ، كان علي ان اضج من زمن بعيد » وبدأ النائب العام محاضرته :

« مدينتنا الهادئة المطمئنة ، يجرحها الذعر ، اطفالنا البريئون مهددون بالذبح في اسرتهم الصغيرة ، اصدقاؤنا الاوفياء يشعرون بالخيبة وسقوط القيم لان القانون لايحميهم ، هذه البربرية المعاصرة تصدر عن انسان في عصرنا المتحضر ، هل تصدقون هذا ..؟؟ الانسان الماثل هنالك امامكم هو واحد من ابطال الذعر المعاصرين ، واحد من اولئك الباحثين عن المجد بالافعال الغريبة ، ولعلها جريمة تلك الكتب المدنسة لحضارة غربية تحتضر ، ذلك الذئب البشري يقرأ كتبا محرمة »« لفرويد » « ودي ساد » « وكارل تشيسمان » . هؤلاء الكتاب الجهنميون الذين افسدوا ناشئتنا بالاحداث النفسية والجنسية المغايرة ، التي لاتعيش على ارضنا الطاهرة ، ارض الديانات ومهبط الرسل ، انها سقطة عصرية ، وتهشيم فاضح للحضارة ، ان يرتد الانسان الى الوراء ليمارس شريعة الغاب ضد اخيه الانسان ، هل تعلمون ايها السادة ان ذلك الوحش البشري ، قد قتل صديقه بالمقص ؟

ورفع المقص امام الجميع الذين صرخوا بصوت واحد « اقتلوه .. الموت له .. »

وتابع محاضرته : استعمل المقص ليدل على غرابة جريمته ، لكي تنشر عنه الصحف انه شاذ وعنيف ، ويقتل بشكل غير مماثل ، انه نموذج القاتل المريض بالشهرة ، ومنذ قدومه وهو يصطنع النوبات والهذيان الليلي ، ولعل اسخف اشاعة اطلقها ، انه يسير بنومه ، جميع هذا اتبعه لتبرير الجريمة. اننا نضع الان بين يدي العدالة قضية خطيرة، ولعل الشعب لن يرضى برأس المجرم بديلا ، لتطهر الارض من الجريمة والى الابد » ..

عاد الهتاف الفوغائي والصخب القطيعي : اشنقوه .. اتركوه لنا لنسحقه بالاقدام ..

كان يمسك بكلتا يديه حديد القفص وهو مطرق نحو الارض ، يستمع للحكم المسبق ، يستمع لتجريحه ، وكان يفكر « لم تعد مؤلمة حرابهم، لقد اصبحت خارج الزمن » .

سأل احد المتفرجين جاره : من هو « فرويد » هذا ؟؟

اجاب الجار ببرودة : « جزيرة في امريكا » .

استغرب المتفرج وقال : ولكن أهذا ألقزم رحل الى امريكا ودار كل البلدان التي عددها الحاكم ..؟

رد الجار : اسكت ، سنراه عن قرب انظر اليه كم هو مخيف.

تقدم من المنصة ، بكل هدوء المحكومين ، وسأله القاضي : الن تعترف .؟

حدق بالقاضي واجاب بصعوبة : بماذا .؟

ـ بالجريمة .

ـ انا لم اقتل احدا .

ـ ألم تستعمل هذا المقص .؟ «وقدمه له » . انظر اليه جيدا .؟

ـ انا لا اعرف كيف امسك مقصا ولا اية الة جارحة .

ـ ليلة الحادث ، اين كنت ؟

ـ أي حادث ؟

ـ حادث القتل .

ـ لا اذكر شيئا ، لا اعرف شيئا.

ـ الا تذكر انك ارتكبت جريمة قتل صديقك ؟ على الاقل المتتساءل لماذا انت في السجن ..؟؟

ـ انا متهم فقط ،

ـ معنى هذا ؟

ـ انني غير قاتل .

ـ صديقك المقتول من طعنه : قل .. اجب !. اعترف !.

وصرخ المتهم بعنف : اللاوعي ..، انت لا تدرك هذا ..

وضجت المحكمة بالاصوات والهتاف ضد العبارة الاخيرة التي لم يفهمها احد ، وتدخل النائب العام :

ـ قلت لكم ايها السادة ان المتهم سيجرب حيله النفسية في اخر لحظة من لحظات عمره ، لكن حيلا مكشوفة كهذه ، لن تنال من القانون الصارم المتماسك .

وهتف القطيع : ... عاش القانون ، تحيا العدالة ..

اردف القاضي : هل توضح باختصار ماذا تعني .؟

كان يواجه كل احقاد العالم ، وحيدا ، وكان عليه ، ان يثقب على نحو ما ، بطريقته الخاصة ، ان يثبت رسوخ الغباء ، وانه غير مخبول، وقال بنفوذ : الشخص الذي قتل كان في حالة النوم ، كان وعيه مخدرا، واللاوعي هو المسيطر الفعلي ، وهو المحرك والدافع ، وقد نفذ الجريمة ، ان هذا غير مفهوم ، وربما غير موجود لديكم ، ولكنه حصل .

وتململ القاضي : لكن لا وعيك ـ اذا سلمنا بوجوده ـ أليس جزءا منك ؟

ـ طبعا في حالة انعدام الوعي ، وانتم تحاكمون الوعي فقط ، كان هناك انشطار ، ولم يكن للوعي اية فعالية في تلك اللحظة، لا يحضران معا.

ـ نحن لا نبحث في الدافع ، لكن السؤال الان ، كيف تثبت انك لم تكن واعيا ؟

ـ سيادة القاضي ، عندما تسقط الدافع ، اقع في الشرك ، ما اريد قوله ان محكمتكم الموقرة ، حكمت علي مسبقا ، على لسان نائبها العام ، وممثليها ، ولعله لن يهمني ان اتأرجح ، فانا شهادة فشل لقانونكم الصلب المتماسك ، عندما قلت انني اسير بنومي ، وانني لا احترف القتل ، لم اكن اقصد التبرير ، انني مدرك جهلكم ورفضكم للانسان الاستثنائي ، فالحالات المخلخلة غير مألوفة ، وهي محرجة للقانون، ولعلكم

تجهلون معنى انقذاف الانسان خارج الزمن بفعل الضغوط الفوغائيـــة المزمنة ، من اجل هذا كله ، لن استهلك وقتكم الثمين ، مع علمي أن في هذه القاعة اناسا يمكنهم مساعدتي ، وانا ارفض شهادتهم لان حيـــاتهم مهددة بوجودي.

ـ هل تعني انك تسبق القتل بالتهديد ..؟؟

ـ كنت قد قررت قبل المحاكمة ان اصمت ، واخيرا عدلت ، لانني اتساءل ، لماذا لا يكون الانسان وثيقة ادانة ضد عصر منهار ، فمع قرص الشمس المتوهج في كل صباح ، يثبت الانسان عداءه للحرية والحقيقة ، بمبررات قانونية موضوعة ، وتتم جميع اللعب ببساطة .

ـ طبعا لا اعتقد انك تريد الحاق الاهانة بقانونمحترم لمدينتنا ..؟؟

ـ انك هنا من اجل ان تحكم فقط ، لا ان تحاكم من داخل ، وليس مدهشا اتهامي بالقتل ورفض القانون لحالتي المرضية ، على العلق ان يمتص ذاته ، ان يتآكل من داخل ، انينصهر بدمه الفاسد بدون اثارة. ألا ترى ان هذا مخجل على الاقل ؟

* * *

كان الهمس قد بدأ يسري بين المتفرجين ، لانهم لم يدركوا معنـى الكلمات الغريبة ، وصرخ احدهم محتجا : « اننا لا نفهم.. اوضحوا لنا هذه المهزلة .. وتطوع النائب العام للمرة الثالثة : المتهم ينفي عنـــه الجريمة بالتحدي للقانون ، وهو يتابع مهزلة الكلمات الخادعة التـي قرأها للمؤلفين الذين حدثتكم عنهم ، يحاول الامساك باخر خيط منخيوط النجاة ، وانتم تعرفون قيمة القانون الذي وضعه رجال محترمون ضد الهمجية والفوضى لبناء حضارة مزدهرة ، وعالم بلا جريمة ».

سأله المتهم : منذ امد سحيق ، والقانون يلوح ، رجال القضـــاء يعلقون جميع الحالات بلا استثناء ، فماذا كانت النتيجة ..؟؟

ـ القانون لا يعرف الاستثناء ، انت قاتل بالاصرار ، ملامح القتـلة تنبثق في تقاطيع جبهتك ، في قلة الشعر النابت في وجهك ، في هزالك الواضح ، نموذج المجرم التصميمي.

رد المتهم بسخرية : الخطة محبوكة تماما ، الاقناع بطريقة عـــلم الاجتماع ، لكن ليس هذا كل شيء ، يوجد نموذج اخر لا تعرفه.

ـ انت تهزأ بصفاقة من قدرتي على الاصطفاء ، لان الكتب التـــي أعطتك هذا وقحة .

قال المتهم : لك ان تشتم ما تشاء ، هذه القاعة لك، لكنك لا تعرف القانل بالتعويض ، وقانونك لا يعرف عقوبة له ، هناك قاتل واحد فقط وله عقوبة واضحة و ...

تدخل القاضي بالجدل : « دعونا من هذا » التفت الى المتهم : تملك عشر دقائق للاعتراف النهائي ، لقد ارتكبت جريمة قتل في الساعة الثانية ليلا ، استعملت هذا المقص ، اداة للتنفيذ ، وخلال اتمام العملية والصراخ المنبعث من الجثة ، حضر رجل موجود هنا الان وامسك بك متلبســـا، حاولت قتله ، لكنه كان اقوى منك ، الان عليك ان تثبت هذا او ترفضه بالادلة والقرائن .

كان القاضي يتكلم بصرامة وتصميم ، وكان الصحفيون قد سجلوا مرافعة النائب العام ، والتقط المصورون الصور ، والاخرون يستعدون للكلمات الاخيرة .

سأل احدهم اخر : ما معنى انسان استثنائي ؟

اجاب رفيقه : رجل متوحش .

وفي الرأس المحضر طعاما للحبال ، كان العالم يدور ، والاحداث اللاواعية تنفتل ، كان المتهم يزوغ ، يصفر كالموتى ، يغيب عن عالم الوعي يتهاوى على الارض عابرا جحيمه بعد فوات الاوان .

حيدر حيدر

دار الاداب تقدم

دُرُوبُ الحرّية

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

في اجزائها الثلاثة :

سـن الرشـد
وقف التنفيـذ
الحزن العميـق

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا
الدكتور سهيل ادريس

* نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق
* تحفة ادبية يجب ان لا تخلـو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥٠ ق.ل
وقف التنفيذ : ٦٥٠ ق.ل
الحزن العميق : ٥٥٠ ق.ل